

الجانب الذهني لوقعة وادي المخازن 1578 مساهمة في دراسة عقليات أطراف المعركة

*The mental aspect of Wadi Al-Makhazin fighting 1578**Contribution to the study the mentalities of battle's parties*

زين العابدين زريوح *

جامعة ابن طفيل

Zinelabidine83@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/11/15 تاريخ القبول: 2023/02/19

الملخص:

اختلفت التصورات الذهنية للمجتمعين المغربي والبرتغالي بجميع الطبقات والفئات حول معركة وادي المخازن، وكذا بين كل أطراف الصراع الأخرى المساهمة فيها، وذلك سواء على مستوى ما تم رصده من طرف بعض المصادر والوثائق قبيل وقوع المواجهة أو أثناء مجرياتها، حيث تضاربت المعتقدات ومشاعر الخوف والإقدام والتوجس والجهل بالآخر، مما خلق انطباعات مختلفة حول العدو لدى الجانبين. إضافة إلى تعدد الارتسامات التي سُجِّلَتْ حول وقائع المعركة وحيثياتها. والأكثر من ذلك الترسبات الذهنية التي تلت نهاية المعركة بكل ما احتوته من حملات واقعية أو متخيلة تمايزت ما بين المنتصرين والمنهزمين، وكذا الذاكرة الممتدة للحدث والتي تركت بصمتها لزمن طويل في عقول المغاربة والبرتغاليين وكتاباتهم وأشعارهم، إلى جانب ما اخترنته الروايات الشفهية على الصعيد الشعبي إلى حدود الساعة. وتتجلى أهمية الموضوع في كونه دراسة مستجدة تتناول من زاوية مغايرة الجانب الذهني لوقعة وادي المخازن 1578م، من خلال العمل على دراسة عقليات أطراف المعركة، بعيدا عن المعطيات الدبلوماسية والأحداث والوقائع المجردة والأرقام. مما سيفتح المجال أمام مشروع واسع لدراسة الذهنيات في خضم الصراعات التي شهدتها البحر المتوسط خلال فترات متباعدة من تاريخه.

Abstract:

The mental perceptions of Moroccan and Portuguese societies of all classes and groups differed about the battle of Wadi al-Makhazin, as well as between all other parties of conflict that contributed to it, whether at the level of what was monitored by some sources and documents before the confrontation occurred or during its course, where beliefs and feelings of fear, courage, apprehension and ignorance conflicted. In the other, which created different impressions about the enemy on both sides. In addition to multiplicity of representations that were recorded about the facts and circumstances of the battle. What is more than that is the mental sedimentation that followed the end of battle With all its real or imagined load that differed between the victor and the defeated, as well as the extended memory of event that left its mark for a long time in the minds of Moroccans and Portuguese in their writings and poetries, and to what was stored by oral narratives on the popular level until the present time.

The importance of this topic is manifested in the fact that it is an unprecedented study that deals with, from a new angle, the mental aspect of Wadi al-Makhazin battle 1578, by working on studying the mentalities of clash's parties, away from diplomatic data, events, abstract facts and numbers. That will open the way for a broad project to study mentalities in the midst of conflicts that the Mediterranean has witnessed during different periods of its history.

Keywords: Wadi al-Makhazin, mentalities, Morocco, Portugal.

1- مقدمة:

ظلت الدراسات المرتبطة بمعركة وادي المخازن 1578م- والتي جمعت الدولة السعدية المدعومة من العثمانيين على أرض مغربية في مواجهة البرتغال المدعوم من قبل عدة أطراف أوربية وعلى رأسها إسبانيا والبابا- رهينة الجانب المادي من هذه المواجهة الكبرى. حيث اقترنت البحوث السابقة بدراسة الأسباب المباشرة لهذه الحرب وحجم الاستعدادات وتعداد الجنود والتجهيزات العسكرية، وما ترتب عنها من ضحايا وأسرى ونتائج سياسية وعسكرية. غافلة بذلك السياق الذي تدخل فيه المعركة، وما تمثله من انعكاس للصراع الحضاري الذي اتسم به حوض البحر الأبيض المتوسطي في إطار التدافع التاريخي ما بين العالمين المسيحي والإسلامي داخل هذه الجغرافيا المتميزة بحددة تفاعلاتها، بحيث وجب التطرق للخلفية العقيدية والدينية المؤثرة في مسار هذه المواجهة، وكذا تحليل نفسيات وذهنيات أطراف المواجهة بشكل أكثر دقة لتحديد الجوانب غير المادية والخفية داخل المعسكرين والتي كان لها أثر بالغ على نتائجها. إلى جانب رصد كل الانعكاسات الذهنية الآتية والممتدة التي خلفتها المعركة لدى الجانبين المغربي والبرتغالي.

إذا فما هي مظاهر الاختلاف العقدي والديني والفكري بين المغرب والبرتغال خلال القرن 16م وعلاقتها بقرار المعركة؟

وأين تتجلى أبرز معالم نفسية وذهنية الطرفين المغربي والبرتغالي قبيل المعركة وخلال احتدامها وبعد نهايتها؟

2. الاختلاف العقدي والفكري ما بين أطراف المعركة:

1.2 عقلية الصراع الديني العقدي:

طغى على العقلية السائدة في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال تلك الفترة مفهوم التكفير والإقصاء من الإيمان على الجانبين المسيحي والإسلامي، وبالتالي شرعية قتاله وإجباره على اعتناق الدين تحديدا لدى الجانب البرتغالي، إذ كانت عقيدة البرتغاليين صليبية بامتياز، سواء لدى فئة النبلاء أو الجنود البسطاء الذين حشدوا من أجل ذلك. حيث كان الفكر الصليبي عقيدة لدى معظم الشعب البرتغالي، ومنهم الملك دون سبستيان (سباشتيانو) الذي تربى على هذه العقيدة المتطرفة، الشيء الذي دفع بعض البرتغاليين إلى تحميل الكنيسة مسؤولية هذه النكسة لأنها التي أشرفت على تربية الملك، وخصوصا رجال الدين "الجوزيت" الذين تكلفوا بتربيته وتعليمه منذ الصبا وحرصوه على القيام بهذه الحملة ومحاربة المسلمين، وأشبعوه بالروح الصليبية⁽¹⁾.

إذ يشير البرتغالي كيروزو فيلوزو إلى أن السبب الرئيسي الذي شكل دافع الملك البرتغالي لهذه الحملة على المغرب لم يكن استرجاع الثغور البرتغالية القديمة أو غزو البلاد، أو الحجة الأساسية التي اتخذها مطية لحملته ألا وهي طرد العثمانيين الذين يهددون مصالح الإيبيريين، بل كان السبب الحقيقي هو حقد دفين تجاه المغاربة دفعه للتوجه نحو إفريقيا لقتالهم⁽²⁾. هذا الغزو الذي شكل له -بسبب خلفيته الدينية المتطرفة- هاجسا وهوسا لا يمكن إيقافه⁽³⁾. زيادة على ارتباط الغزو بالحصول على براءة البابا ودعمه، وتجميع

¹- بوشرب، أحمد. (1983، دجنبر). "معركة وادي المخازن من خلال كتاب حملة الملك دون سبستيان على إفريقيا لمؤلف برتغالي مجهول". مجلة المناهل. 10(28). ص 118.

²- فيلوزو، كيروزو. (2020). معركة القصر الكبير. ترجمة عثمان المنصوري. القصر الكبير: جمعية البحث التاريخي والاجتماعي القصر الكبير. ص 35.

³- نفسه: ص 13.

سبستيان جنود الحملة من جل ربوع أوروبا من ألمان وإسبان وإيطاليين وفرنسيين وغرهم، إلى جانب مشاركة فرسان مالطا، مما يشير إلى حملة صليبية متكاملة الأركان⁽⁴⁾.

في المقابل كانت نظرة المغاربة تجاه النصارى بأنهم "كفرة"⁽⁵⁾، و"بني الأصفر" و"أهل ملة التثليث"⁽⁶⁾، و"كتائب المشركين" و"طواغيت الشرك"⁽⁷⁾. ولذلك اعتبر المغاربة انتصارهم في المعركة "من نصر الإسلام وأهله وخذلان الكفر وأهله"⁽⁸⁾.

2.2 اختلاف التوجه الفكري داخل معسكر المغاربة:

كان الاختلاف أيضا واضحا على مستوى الولاءات والتفكير داخل المعسكر المغربي نفسه، حيث يلاحظ فوارق كبيرة ما بين الذين ساندوا الأمير المخلوع محمد المتوكل والذين خالفوه، ومنهم محمد بن عسكر الذي قتل إلى جانبه، فمعظم المغاربة وأعيانهم اعتبر عدم شرعية الاستقواء بالنصارى على المسلمين لتنافي ذلك مع المعتقد الإسلامي ومصادره من قرآن وسنة، بينما قلة منهم من رأى برأي السلطان المخلوع جواز ذلك على اعتبار أن المتوكل قد اغتصب عرشه⁽⁹⁾. كما أن رد علماء المغرب على المتوكل بين حماية وإيمان الناس من أجل الدفاع عن دينهم، منتقدين في الآن ذاته شعوره بالافتخار بجموع جيش المسيحيين الذين جاء بهم لاسترجاع ملكه⁽¹⁰⁾.

3. نفسية وذهنية الجانب المغربي:

نرصد مجموعة من المشاعر والأحاسيس التي تقاذفتها أنفس القادة والمقاتلين والأهالي خلال مختلف أطوار المعركة ما بين فصليلها المتعاركين، حيث يمكن أن نستخلص بعض المظاهر الذهنية التي طبعت الفريقين، وفي مقدمتهما الفريق المغربي الذي غلبت عليه مظاهر نفسية وذهنية واضحة، وفي مقدمتها الخوف الذي دب في صفوف المغاربة قبيل المواجهة وبدايتها، وخصوصا بين اليهود الذين تذكروا محاكم التفتيش التي فروا منها، على غرار الطبيب اليهودي الخاص بالمعتصم الذي قام بدورا مهم في التستر على موته حتى لا ينكسر المعسكر المغربي مخافة سقوط البلاد وأهلها في يد البرتغاليين⁽¹¹⁾. إلى درجة تخوف معها المغاربة من هذا الحرب وضعفت عزائمهم في لحظة من اللحظات نتيجة الصيت الذي سبق الجيش الصليبي المهاجم، خصوصا وأن الشعور السائد آنذاك حسبما يذكر الإفرائي لدى عموم المغاربة أن هذا الغزو يستهدف هلاك المغرب وحصد المسلمين، ومنه فقد وصلوا إلى درجة كبيرة من

⁴- نفسه: ص 56-61، 193.

⁵- ابن القاضي، أحمد. (1986). المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور. دراسة وتحقيق محمد مرزوق. الرباط: مكتبة المعارف. ص 245.

⁶- نفسه. ص 244.

⁷- الفشتالي، عبد العزيز. (1972). مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا. دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم. الرباط: مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة. ص 39.

⁸- أبو خليل، شوقي. (1993). وادي المخازن: معركة الملوك الثلاثة-القصر الكبير. دمشق: دار الفكر. ص 80.

⁹- الناصري، أحمد. (2001). الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 5. تحقيق وتعليق أحمد الناصري. الرباط: منشورات وزارة الثقافة والإتصال. ص 75، 80-79.

¹⁰- نفسه: ص. 80.

¹¹- DE CASTRIE, Henry. (1918). Les Sources Inédites de l'histoire du Maro. 1ère série - Dynastie Saadienne. Archives et bibliothèques d'Angleterre. Paris : Ernest Leroux. Tome I. P 317-318.

الرعب والهيجان والاضطراب والحيرة من أمرهم، إذ "عظم ذلك على الناس وامتألت قلوبهم رعبا وصدورهم كربا وبلغت القلوب الحناجر واشتعلت على أهل العقول من ذلك نيران الهواجر"، وهو ما لم يذهب إلا مع نهاية المعركة وتحقيق النصر⁽¹²⁾، ومنهم سكان القصر الكبير الذين بلغ التخوف ببعضهم إلى درجة التفكير في الفرار أو الإذعان بسبب عدم القدرة على المواجهة في ظل غياب أي سند وبعد السلطان الذي كان حينها في مراكش، بعدما عاينوا "الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التي لا طاقة لهم بها.... فلم يبق لهم تدبير إلا الفرار والتحصن بالجبال"⁽¹³⁾، لولا التثبيت الذي مارسه العلماء ومنهم أبو المحاسن الفاسي الذي أمر بالنداء في الناس أن: "الزموا بلادكم ودوركم، فإن عظيم النصارى مسجون حيث هو حتى يجيء السلطان من مراكش، والنصارى غنيمة المسلمين، ومن شاء فليعط خمسين أوقية"، مشيرا بذلك إلى قيمة الأسير المسيحي في الغنيمة، حيث ثبت الأهالي وطمأنهم وحظهم على الصمود والصبر وبشرهم بقدوم السلطان عبد الملك المعتصم والانتصار في المعركة وحصول الغنيمة، مما ساعد في تشجيعهم على البقاء في أماكنهم والاستعداد للمواجهة⁽¹⁴⁾. كما وقع نفس الأمر من الانكسار خلال المعركة بالنسبة للمقاتلين على ميسرة الجيش المغربي، حيث أصيبوا بالتصدع والخذلان لولا تدارك المشايخ الأمر مرة أخرى⁽¹⁵⁾. بعدما أربهم البرتغاليون عن طريق الخيول المصفحة والمرتبة بشكل أوهمهم بأن أعدادها لا تحصى، إلى درجة بث ذلك في نفوسهم الخوف⁽¹⁶⁾. بل أكثر من ذلك راجت أساطير خلال المعركة تحض الناس على الإقدام وعدم التراجع، من قبيل قصة حضور الشيخ الغوث أبو العباس السبتي المشهد "جهارا على فرس أشهب يحض الناس على التقدم"⁽¹⁷⁾. باستثناء أولاد مطاع الذي أغاروا على الجيش المغربي لخدمتهم السلطان المخلوع⁽¹⁸⁾.

وإلى جانب التحفيز الذي قام به العلماء والمشايخ، فإن الإقدام والحزم والتنظيم والإعداد وكل ما أظهر السلطان المعتصم من عزم على الانتصار ساعد الناس بشكل كبير على تجاوز حاجز الخوف وحمسهم على الانخراط في الجيش المدافع، هذه الشجاعة والتحدي الذي أبانه في رسائله للملك البرتغالي⁽¹⁹⁾، فبناء على ذلك "انضاف له من المتطوعة كل من رغب في الأجر وطمع في الشهادة وأقبل الناس سراعا من الآفاق وابتدروا حضور هذا المشهد الجليل"⁽²⁰⁾. حيث يشير البرتغالي المجهول إلى أن المغاربة تشجعوا والتفوا حول المعتصم وتقاطروا من جميع الجهات على منطقة الهبط، لأنهم تنبهوا لخطورة هذه الحملة التي "لا تهدف إلا إلى الاستيلاء على أراضيهم وأسر نسائهم وأبنائهم، لذا هبوا للمشاركة في تلك الحرب حتى من المناطق الأشد بعدا بداخل إفريقيا"، الشيء الذي تدعم برغبتهم في الاستشهاد دفاعا عن أرضهم، إلى جانب ارتباطهم بالمعتصم وكرههم لابن أخيه المتوكل، إلى أن أصبحت أعدادهم مثل تكاثر النحل⁽²¹⁾. إلى درجة أصبح معها أن عبد الملك يرفض انضمام المتطوعين الذين لا يرى حاجة في مشاركتهم⁽²²⁾.

12- الإفرائي، محمد الصغير. (1998). نزعة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. تحقيق وتقديم عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة. ص 139.

13- الناصري، أحمد. الإستقصا، ج 5. ص 81.

14- الفاسي، محمد العربي. (2008). مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن. تحقيق محمد حمزة الكتاني، بيروت: دار ابن حزم. ص 102، 147.

15- نفسه. ص 101-102.

16- مؤرخ مجهول. (1994). تاريخ الدولة السعدية التكملة. تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة. مراكش: دار تينمل للطباعة والنشر. ص 61.

17- الإفرائي، محمد الصغير. نزعة الحادي. ص 141.

18- مؤرخ مجهول. تاريخ الدولة السعدية. ص 62.

19- الإفرائي، محمد الصغير. نزعة الحادي. ص 140.

20- نفسه. ص 139.

21- بوشرب، أحمد. "معركة وادي المخازن". ص 121-123.

22- فيلوزو، كيروش. معركة القصر الكبير. ص 111.

فقد كانت هذه المسألة في غاية الأهمية في تغيير موازين القوى في المعركة، رغم أن الملك البرتغالي لم يأخذها بعين الاعتبار وتجاهلها، مع أنه تم تنبيهه من طرف أحد كبار رجال المخزن السعدي المدعو "سيدي موسى" الذي لجأ إلى البرتغال هرباً من بطش عبد الله الغالب، والذي حذره من الخسائر الفادحة المتوقعة لهذه الغزو وعدم القدرة على احتلال المغرب "ولو كان عنده نهر من المال وآخر من الرجال... لأن إفريقيا منطقة يتضافر فيها المناخ والموقع ونوع المساكن وطبيعة الأرض على القتال لصالح سكانها"، كما نبهه إلى أن هذا التهديد بفقدان الاستقلال سيدفع المغاربة إلى الاستنجاد "عن طريق الأتراك، والتخلي قبل ذلك عن حريتهم لأمر من نفس الديانة، على اتباع ملك مسيحي، وهو أمر بغض عند كل المسلمين"، وبذلك سيجد الملك البرتغالي نفسه قد أثار خطراً أكبر بكثير⁽²³⁾.

إذ يذكر Manuel Pablo Castellanos أيضاً بأن شجاعة المعتمد وحزمه كان له دور في هذا الانتصار إلى غاية لحظة موته⁽²⁴⁾. بالإضافة إلى استمرار حاجبه القائد الطابع من بعده في توجيه الأوامر بإسم السلطان بالقتال والتقدم رغم موته موهما الجميع بأنه على قيد الحياة حتى تحقق النصر⁽²⁵⁾.

هذا الانتصار الذي خلق صوراً ذهنية أخرى عقب إزاحة الخوف البرتغالي، إلى درجة شبهها ابن القاضي بغزوة بدر والغزوة العظيمة⁽²⁶⁾. كما نقل ابن القاضي عن بعض الكرامات بعد انتهاء المعركة أن النصاري يموتون من دون فاعل، حيث كان المقاتلون يجدونهم صرعى حتى قبل أن تصل أيديهم إليهم⁽²⁷⁾.

ولعل هذه الأجواء الحماسية للمعركة وحجم النصر فيها ما جعل المغاربة ممن لم يسعفهم الحظ في حضورها يشعرون بحالة من الأسف والحزن والحرق والندم على عدم المساهمة في هذا النصر⁽²⁸⁾.

فبعد ذهاب الرعب عن قلوب المغاربة فتح المجال أمامهم للتنفيس عن زوال غم الخطر البرتغالي الذي أصبح هينا في أعينهم بعد الانتصار في المعركة والذل الذي حاق بالجانب الآخر، حيث ظلت أمثلة شعبية رائجة لقرون عديدة في جغرافيا المواجهة بمنطقة القصر الكبير من قبيل ما زال متداولاً من قبيل أنه: «كان يكفي استخدام الشطاطيب لطرد البرطقيز من البلاد»⁽²⁹⁾.

كما لا تعدو عملية حشو جلد محمد المتوكل بالتبن تعبيراً نفسياً عن حجم الامتعاض الذي حملته المغاربة بأمرائهم وأعيانهم وعامتهم تجاهه، وذلك نظراً للبلوى التي أقحم فيها البلاد والتهديد الذي شكله استدعاؤه للبرتغاليين من خطر كاد أن يفقدهم حريتهم وممتلكاتهم وعقيدتهم لفائدة عودهم النصرائي، حيث اتسمت سيرته في الذهنية الشعبية بالخيانة، لترتبط صورته منذئذ لدى عامة الناس بلقب "المسلوخ"⁽³⁰⁾. إلى جانب أحد رجال حاشيته وهو محمد ابن عسكر صاحب "دوحة الناشر" والذي وجد -حسب كلام الناس-

23- نفسه، ص 42.

24- الناصري، أحمد. الإستقصا، ج 5. ص 87.

25- مؤرخ مجهول. تاريخ الدولة السعدية. ص 61.

26- ابن القاضي، أحمد. المنتقى المقصور. ص 244.

27- نفسه، ص 245.

28- أبو خليل، شوقي. وادي المخازن: معركة الملوك الثلاثة. ص 82.

29- حبيدة، محمد. (2016). بؤس التاريخ: مراجعات ومقاربات. الرباط: دار الأمان. ص 160.

30- الإفرائي، محمد الصغير. نزهة الحادي. ص 117.

"على شماله مستندبرا القبلة... ما بين جيف النصارى"، كمشهد يعبر عن سوء الاصطفاف والخاتمة في إطار رؤية دينية محضة حصرت فيها هذه الشخصية وكل من والى المتوكل وحلفائه البرتغاليين⁽³¹⁾. إذ وصفوا بـ "عصاة المسلمين" كإشارة على الصورة الذهنية السلبية لهذا السلطان وأتباعه التي ترسخت بين المغاربة حينها⁽³²⁾.

إضافة إلى الاعتقاد بأن عدم توزيع الغنائم بشكل شرعي والاختلاط الأموال بالحرام كان سببا في مجموعة من الأزمات منها غلاء المعيشة ورفع البركة عن الأموال من حينها⁽³³⁾، كما اعتقد أنها كانت سببا في الطاعون الفتاك الذي ضرب المغرب سنة 1579م⁽³⁴⁾.

4. نفسية وذهنية الجانب البرتغالي:

كان ميدان المعارك مليئا بالمشاعر التي هزت نفوس جنود الجانبين خصوصا مع هول المواجهة وما تضمنته من ضجيج قوي وأصوات المدافع والطلقات النارية والرماح وكذا قوة المواجهة وضخامة أعداد الجنود وتجهيزاتها، الشيء الذي "جعل القلوب ترتجف وألوان الوجوه تتغير، وتجعل كل واحد يخاف على مصيره حتى ولو كان فريقه هو الأكثر أمنا" وهو الذي كان في البداية الطرف البرتغالي⁽³⁵⁾.

وعلى النقيض من ذلك فإن البرتغاليين كان يشعرون بنوع من الحماس والثقة الزائدة في النفس جراء انتصارات بداية القرن السادس والمكتسبات التي حققوها على قلة عدد سكانهم إلى درجة اعتقد معها العامة والخاصة أنهم أصبحوا يمثلون شعب الله المختار، وكانوا يرغبون في العودة إلى تلك الأجواء النفسية الإيجابية وتتوجيها بالحملة على المغرب بعد خيبة الأمل التي تمثلت في التراجع على مستوى مجموعة من الثغور المغربية خلال عهد الملك يوحنا الثالث، لكن سرعان ما تحول الأمر كله إلى نكسة كبرى⁽³⁶⁾. فقد كان يقين الملك البرتغالي راسخا بعدم قدرة المغاربة على مواجهته وإقدامهم على الفرار أو الانكسار أمام الجيش البرتغالي خوفا من هبة وشهرة هذا الجيش، وهو ما جعله يتجاهل بذلك كل التحذيرات التي تلقاها من بعض مستشاريه ورجال دولته واعتلال خططه واستعداداته العسكرية⁽³⁷⁾.

لكن بعدما انتقلوا من حالة اليقين بالنصر المحسوم سلفا خصوصا مع ضخامة وقوة الجيش المعد سلفا للحملة⁽³⁸⁾، على الرغم من أن جزءا من الجنود البرتغاليين البؤساء أرغموا على الالتحاق بالجيش دون رغبتهم وكانوا في حالة من التعاسة⁽³⁹⁾، فقد انقلب حالهم، وأصيبوا بالخيبة والانكسار إثر اتضاح التفوق المغربي بعد مدة قصيرة من بداية المعركة، مما زاد من رعبهم وجعلهم يتوجهون

31- نفسه، ص 142.

32- مؤرخ مجهول. تاريخ الدولة السعدية. ص 64.

33- الفاسي، محمد العربي. مرآة المحاسن. ص 147.

34- الناصري، أحمد. الإستقصا، ج 5. ص 205.

35- بوشرب، أحمد. "معركة وادي المخازن". ص 125.

36- نفسه، ص 117.

37- فيلوزو، كيروش. معركة القصر الكبير. ص 89.

38- DE CASTRIE, Henry. Les Sources Inédites. Archives d'Angleterre. Tome I. Op., cit. p. 300-301.

39- DE LA VERONNE, Chantal. (1961). Les Sources Inédites de l'Histoire du Maroc. 1^{ère} série- Dynastie Saadienne. Archives et bibliothèques d'Espagne. Paris : Paul Geuthner. Tome III. P 474.

بالفرار نحو النهر، الشيء الذي ساهم في وفاة ملكهم وسهل حسم المعركة على المغاربة⁽⁴⁰⁾. حيث أن حماية المغاربة واقتحامهم لصفوف العدو جعل البرتغاليين يصابون بالدهشة والفوضى ودفعهم للفرار باتجاه الوادي والهلاك فيه أو الوقوع في الأسر⁽⁴¹⁾. كما أن وفاة الملك سبستيان بهذا الشكل المأساوي في المعركة بصم ذاكرة البرتغاليين من خلال كتاباتهم وأشعارهم، ولو بعد حين، لما تركه لما هذا الأمر من أثر في نفوسهم⁽⁴²⁾.

فقد كانت هذه الوقعة -حسب أحد المؤرخين الإنجليز- بالنسبة للبرتغاليين "وقعة هائلة ويوما مشؤوما"، كما أشار Luiz Maria de conto إلى عمق الحسرة والإحباط الذي أرحى بظلاله آنذاك على الذهنية البرتغالية من خلال عبارة دالة: "وقد كان مخبوءا لنا في مستقبل الأعصار، العصر الذي لو وصفته كما وصفه غيري من المؤرخين لقلت هو العصر النحاس، البالغ النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل وانقطع الرجاء واضمحل إبان الغنى والريح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير من بلاد المغرب"⁽⁴³⁾.

- إيمان البرتغاليين بأن الهزيمة كان سببها انتشار الرذائل وتردي الأخلاق والابتعاد عن الدين لدى الشعب البرتغالي وانغماسه في جمع الأموال على خلاف الأجيال السابقة⁽⁴⁴⁾. هذه الهزيمة التي خلفت مظاهر البؤس والفقر داخل البرتغال نتيجة فقدان الأموال في الغنائم والفدية بشكل أساسي⁽⁴⁵⁾. وهو ما ترافق مع نفسية متدهورة لدى عموم البرتغاليين مع فقدان امبراطوريتهم إلى درجة تسميتها بـ "النكبة المفجعة"⁽⁴⁶⁾، و "المصيبة الكبرى"⁽⁴⁷⁾ و "النكسة"⁽⁴⁸⁾. والهزيمة المشحونة بـ "الشقاء والمحن"⁽⁴⁹⁾.

فقد حل بالنصارى عموما -حسب الشيخ رضوان الجنوي (ت 991هـ/1583م)- "دهش وخزي وخذلان" كان يجب استغلاله بعد معركة وادي المخزن لاسترجاع الثغور المحتلة كما ذكر في رسالته إلى السلطان المنصور⁽⁵⁰⁾.

40- الإفرائي، محمد الصغير. نزهة الحادي. ص 142.

41- الناصري، أحمد. الإستقصا، ج 5. ص 87.

42- نفسه. ص 88.

43- نفسه. ص 89.

44- بوشرب، أحمد. "معركة وادي المخازن". ص 120-121.

45- نفسه. ص 127.

46- دي صالادانيا، أنطونيو. (2011). أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب. تقديم وترجمة وتحقيق إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف. الرباط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر. ص 27.

47- نفسه. ص 34.

48- نفسه. ص 34.

49- نفسه. ص 22.

50- أبو خليل، شوقي. وادي المخازن: معركة الملوك الثلاثة. ص 82.

5. خاتمة:

نخلص في نهاية الدراسة إلى أن الخلفية الذهنية والنفسية كان لها دور بارز في التأثير على نتائج المعركة وحسمها لصالح الطرف المغربي الذي تمتع بنوع من الحماس الديني والدعم النفسي، وذلك بتأطير من السلطان السعدي عبد الملك المعتصم الذي تميز بشخصية ذكية وشجاعة واضحة وخبرة سياسية وعسكرية واسعة، تمكن من خلالها حشد الهمة للوقوف أمام هذا الهجوم الكبير بعزيمة قوية وتنظيم محكم، إلى جانب الزوايا ومشايخ التصوف الذين استطاعوا تحفيز الأهالي على الصمود في مواجهة هذا الغزو الذي كان يعتقد بأنه لا يقهر، وهو ما أغفله البرتغاليون وعلى رأسهم الملك البرتغالي سبستيان الذي جعلته تربيته الدينية يقدم على هذه المغامرة دون حسابات دقيقة، في ظل استصغاره للجانب المغربي وثقته المبالغة في قدراته العسكرية الهائلة، مما دفع الطرف البرتغالي إلى ارتكاب عدة أخطاء تكتيكية أسهمت في هزيمته القاسية التي تركت بصمتها السيئة في نفسية البرتغاليين لقرون عديدة، خصوصا وأن هذه المعركة أسهمت في إضعاف إمبراطوريتهم وفقدانها لمستعمراتها واستقلالها لمدة من الزمن بعد خضوعها للحكم الإسباني.

إذ يظهر بوضوح الدور الذي يمكن أن يلعبه ذهنيات الشعوب وعقليات حكامها وعساكرها في تحديد قراراتها ومسارها، ومنه يجب على البحث التاريخي الانفتاح بشكل أكبر على هذه الزاوية المنهجية من أجل الكشف على جوانب خفية في العديد من القضايا والأحداث التاريخية.